

الباب الثالث والسبعون: في ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يحمد ويذم من عشرتهن وفيه فصول

الفصل الأول: في النكاح وفضله والترغيب فيه

قال الله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرِبَاعًا^(١)﴾ الآية وقال تعالى: ﴿وَانكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ^(٢)﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ^(٣)﴾ الآية وقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(٤) وقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوادٍ عندكم». وقال رسول الله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة». وقال ﷺ: «سوداء ولود، خير من حسناء عقيم». وقال رسول الله ﷺ: «أحسن النساء بركة أحسنهن وجهاً، وأرخصهن مهراً».

فينبغي للرجل إذا أراد أن يتزوج أن يرغب في ذات الدين، وأن يختار الشرف والحسب. كما حكي أن نوح بن مريم قاضي مرو أراد أن يزوج ابنته فاستشار جاراً له مجوسياً فقال: سبحان الله الناس يستفتونك وأنت تستفتيني. قال لا بد أن تشير علي. قال: إن رئيسنا كسرى كان يختار المال، ورئيس القوم قيصر كان يختار الجمال، والعرب كانت تختار الحسب والنسب، ورئيسكم محمد كان يختار الدين. فانظر أنت بأيهم تقتدي. وقال رجل للحسن: إن لي ابنة فمن ترى أن أزوجه لها. قال: زوجه ممن يتقي الله عز وجل، فإن أحبها أكرمها، وأن أبغضها لم يظلمها. وقيل لرجل من الحكماء: فلان يخطب فلانة فقال: أموسر من عقل ودين؟ فقالوا: نعم. قال: فزوجوه إياها. ويستحب البكر لقوله ﷺ: «عليكم بالأبكار فانهن أطيب أفواهاً وأنتق أرحاماً»^(٥) وقالوا: أشهى المطي ما لم يركب، وأحب اللآلئ ما لم يثقب، وأنشد بعضهم:

قالوا نكحت صغيرة فأجبتهم
أشهى المطي إلي ما لم يُركب

(١) سورة: النساء، الآية: ٣.

(٢) سورة: النور، الآية: ٣٢.

(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٥.

(٤) وجاء: حفظ وحماية.

(٥) أنتق أرحاماً: أكثر أولاداً.

كم بين حبة لؤلؤ مثقوبة نُظِّمْتُ حبة لؤلؤ لم تُثَقِّبِ
فأجابته امرأة:

إن المطيئة لا يلدُّ ركوبُها حتى تذلل بالزمام وتُرَكِّبَا
والسدُّ ليس بنافعٍ أربابُه حتى يؤلفَ بالنظام ويُثَقِّبَا

قال خالد بن صفوان:

عليك إذا ما كنتَ في الناس ناكحاً بذاتِ الثنايا الغرِّ والأعينِ النجلِ

وقيل: استشار رجل داود عليه السلام في التزويع، فقال له: سل سليمان وأخبرني بجوابه. فصادفه ابن سبع سنين وهو يلعب مع الصبيان راكباً قصبة. فسأله. فقال: عليك بالذهب الأحمر، أو الفضة البيضاء، واحذر الفرس لا يضر بك، فلم يفهم الرجل ذلك فقال له داود عليه الصلاة والسلام: الذهب الأحمر البكر، والفضة البيضاء الثيب الشابة ومن وراءهما كالفرس الجموح، وقال رسول الله ﷺ: «تخيروا لنطفكم» وقال ﷺ: «انظر في أي شيء تضع ولدك، فإن العرق دساس» وقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم وخضراء الدمن، قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء» وأنشدوا فيه:

إذا تزوّجتَ فكنْ حاذقاً وأسأل عن الغصني وعن منبتِه
وقال بعضهم:

وأولُ خبثِ الماءِ خبثُ ترابه وأولُ خبثِ القومِ خبثُ المناكحِ

وعن علي رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: قال: «لا تسترضعوا الحمقاء ولا العمشاء فإن اللبن يعدي». وقيل إن جعفر بن سليمان بن علي عاب يوماً على أولاده وأنهم ليسوا كما يجب فقال له ولده أحمد بن جعفر: إنك عمدت إلى فاسقات مكة والمدينة، وإماء الحجاز فأوعيت فيهن نطفك ثم تريد أن يُنجِبَن، وإنما نحن كصاحبات الحجاز هلا فعلت في ولدك ما فعل أبوك فيك حين اختار لك عقيلة قومها فزوّجها منك، وأنشدوا:

صفاتٌ من يستحب الشرع خطبتها جَلَوْتُهَا لأولي الألباب مختصراً
صبيّةٌ ذاتُ دينٍ زانّةٌ أدبٌ بكرٌ ولو دُحْكَتْ في نفسها القمراً
غريبةٌ لم تكن من أهلِ خاطبها تلك الصفاتُ التي أجلو لمن نظراً
فيها أحاديثُ جاءت وهي ثابتةٌ أحاط علماً بها من في العلوم قراً

وقال آخر:

مطيأتُ السرور فويقو عشر إلى العشرين ثم قف المطايا
فإن جزتَ المسيرَ فسِرْ قليلاً وبنّتُ الأربعين من الرزايا^(١)

وقال آخر:

فإياك إياك العجوز ووطأها فما هو إلا مثل سم الأراقم^(٢)

(١) الرزايا: المصائب.

(٢) الأراقم: سم الأفاعي.

واعلم أن العيش كله مقصور على الحليلة الصالحة، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التي لا تسكن النفس إلى عسرتها، ولا تقرّ العيون برؤيتها. وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: المرأة العاقلة تعمر بيت زوجها، والمرأة السفهاء تهدمه. وروي أنه لما حضر أبو طالب نكاح رسول الله ﷺ على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ومعه بنو هاشم ورؤساء مضر خطب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل وعنصر مضر، وجعلنا حصنة بيتي، وسواس حرمة، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوزن به رجل من قريش إلا رجح به برأ وفضلاً وكرماً ومجداً ونبلأً، فإن كان في المال قلّ فالمال ظل زائل ورزق حائل، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالي كذا وكذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل.

ولما خطب عمر بن حجر الكندي إلى عوف بن محلم الشيباني ابنته أم إياس وأجابه إلى ذلك أقبلت عليها أمها ليلة دخوله بها توصيها، فكان مما أوصتها به أن قالت: أي بنية إنك مفارقة بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي منه درجت إلى رجل لم تعرفه، وقرين لم تألفه، فكوني له أمة ليكون لك عبداً، واخفظي لي خصلاً عشراً يكر لك ذخراً، فأما الأولى والثانية فالرضا والقناعة، وحسن السمع له والطاعة، وأما الثالثة والرابع فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه وأنه فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم أنفه منك إلا أطيب الريح، وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت طعامه ومنامه فإن شدة الجوع ملهبة وتنغيض النوم مغضبة، وأما السابعة والثامنة فالإحراز لما له والارعاء على حشمة وعياله، وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصي له أمراً ولا تفشي له سرّاً، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سرّه لم تأمني غدره، وإياك ثم إياك والفرح بين يديه إذ كان مهتماً، والكآبة لديه إذا كان فرحاً. فقبلت وصية أمها فأنجبت له الحارث بن عمرو جد امرئ القيس الملك الشاعر.

وعن الهيثم بن عدي الطائي عن الشعبي قال: لقيني شريح فقال لي: يا شعبي عليك بنساء بني تميم فإني رأيت لهن عقولاً، فقلت وما رأيت من عقولهن؟ قال: أقبلت من جنازة ظهراً فمررت بدورهن وإذا أنا بعجوز على باب دار وإلى جانبها جارية كأحسن ما رأيت من الجواري فعدلت إليها واستسقيت وما بي عطش. فقال لي: أي الشراب أحب إليك؟ قلت ما تيسر. قالت: ويحك يا جارية اتّيه بلبن فإني أظنّ الرجل غريباً، فقلت للعجوز ومن تكون هذه الجارية منك؟ قالت هي زينب بنت جرير إحدى نساء بني حنظلة، قلت هي فارغة أم مشغولة، قالت: بل فارغة قلت أتزوجينها؟ قالت إن كنت كفاء ولم تقل كفواً، وهي لغة بني تميم فتركها ومضيت إلى منزل لأقيل^(١) فيها فامتنعت مني القائلة، فلما صليت الظهر أخذت بيد إخواني من العرب الأشراف علقمة، والأسود، والمسيب، ومضيت أريد عمها فاستقبلنا وقال ما شأنك أبا أمية قلت زينب ابنة أخيك. قال ما بها عنك رغبة فزوجنيها، فلما صارت في حبالي ندمت وقلت أي شيء صنعت بنساء بني تميم، وذكرت غلظ قلوبهن، فقلت أطلقها. ثم قلت ولكن أدخل بها فإن رأيت ما أحب وإلا كان ذلك. فلو شهدتني يا شعبي وقد أقبلت نساؤها يهدينها حتى أدخلت عليّ فقلت: إن من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم ويصلي ركعتين، ويسأل الله تعالى من خيرها، ويتعوّذ من شرّها، فتوضأت فإذا هي تتوضأ بوضوئي وصليت فإذا هي تصلي بصلاتي. فلما قضيت صلاتي أتتني جواريتها فأخذن ثيابي والبستني ملحفة

(١) لأقيل: أنام القيلولة.

قد صبغت بالزعفران. فلما خلا البيت دنوت منها فمددت يدي إلى ناصيتها. فقالت: على رسلك أبا أمية، ثم قالت الحمد لله أحمدته وأستعينه وأصلي على محمد وآله، أما بعد فلإني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك، فبين لي ما تحب فأتيه، وما تكره فأجتنبه فإنه قد كان لك منكح^(١) في قومك، ولي في قومي مثل ذلك. ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله تعالى به، إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولك ولجميع المسلمين. قال فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخطبة في ذلك الموضع، فقلت الحمد لله أحمدته وأستعينه وأصلي على محمد وآله. أما بعد فإنك قلت كلاماً إن ثبت عليه يكن ذلك خطأ لي، وإن تدعيه يكن حجة عليك أحب كذا وأكره كذا وما رأيت من حسنة فابشيتها وما رأيت من سيئة فاستريتها. فقالت كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت ما أحب أن يملني أصهاري. قالت فمن تحب من جيرائك يدخل دارك آذن له، ومن تكرهه أكرهه. قلت: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء. قال؛ فبت معها يا شعبي بأنعم ليلة ومكثت معي حولاً لا أرى منها إلا ما أحب. فلما كان رأس الحول جثت من مجلس القضاء وإذا أنا بعجوز في الدار تأمر وتنهاي قلت: من هذه؟ قالوا: فلانة أم حليلتك. قلت: مرحباً وأهلاً وسهلاً. فلما جلست أقبلت العجوز فقالت: السلام عليك يا أبا أمية، فقلت: وعليك السلام ومرحباً بك وأهلاً. قالت: كيف رأيت زوجتك؟ قلت: خير زوجة، وأوفق قرينة، لقد أدبت فأحسنت الأدب، وريضت فأحسنت الرياضة فجزاك الله خيراً. فقالت: يا أبا أمية إن المرأة لا يرى أسوأ حالاً منها في حالتين. قلت: وما هما؟ قالت: إذا ولدت غلاماً، أو خطيت عند زوجها، فإن رابك مريب فعليك بالسوط، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم أكثر من الروعاء المدللة. فقلت: والله لقد أدبت فأحسنت الأدب، وريضت فأحسنت الرياضة. قالت: كيف تحب أن يزورك أصهارك؟ قلت: ما شاءوا، فكانت تأتيني في رأس كل حول فنوصيني بتلك الوصية، فمكثت معي يا شعبي عشرين سنة لم أعب عليها شيء. وكان لي جار من كندة يفرغ امرأة ويضربها فقلت في ذلك:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم	فشلت يميني يوم تُضربُ زينبُ
أضربها من غير ذنب أتت به	فما العدلُ مني ضربُ مَنْ ليس يُذنبُ
فزينبُ شمسٌ والنساءُ كواكبُ	إذا طلعتْ لم يبدُ منهنَّ كوكبُ

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفي ألف في السر، وخمسمائة ألف في العلانية فأجابه إلى ذلك وحملها إلى العراق فأقامت عنده ثمانية أشهر، فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافداً نزل بدمشق فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة ومعه الناس فاستقبله ابن جعفر بالترحيب. فقال له الوليد: لكنك أنت لا مرحباً بك، ولا أهلاً. قال: مهلاً يا ابن أخي فلست أهلاً لهذه المقالة منك. قال: بلى والله وبشر منها، قال: وفيه ذلك؟ قال: لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب، وسيدة نساء بني عبد مناف فعرضتها لعبد ثقيف يتفخذها. قال: وفي هذا عتبت علي يا ابن أخي؟ قال: نعم. فقال عبد الله: والله ما أحق الناس أن لا يلومني في هذا إلا أنت وأبوك، لأن مَنْ كان قبلكم من الولاة يصلون رحمي ويعرفون حقي، وإنك وأباك منعتاني رفقاً حتى ركبني الدين. أما والله لو أن عبداً حبشياً مجدعاً أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه، إنما فديت بها رقبتي، فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك. فقال: ما لك يا أبا العباس؟ قال: إنك

سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف، فأدركت عبد الملك غيره فكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل. قال: ولم يكن يقطع الحجاج عنها رزقاً ولا كرامة، يجربها عليها حتى خرجت من الدنيا، وما زال واصلاً لعبد الله بن جعفر حتى مات. وما كان يأتي عليه حول إلا وعنده غير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف.

وحكي أن المغيرة بن شعبة لما ولي الكوفة سار إلى دير هند بنت النعمان وهي فيه عمياء مترهبة فاستأذن عليها، فقالت: من أنت؟ قال: المغيرة بن شعبة الثقفي. قالت: وما حاجتك؟ قال: جئت خاطباً. قالت: إنك لم تكن جئتني لجمال ولا مال، ولكنك أردت أن تتشرف في محافل العرب فتقول تزوجت بنت النعمان بن المنذر، وإلا فأي خير في اجتماع عمياء وأعور.

وكان عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل وكانت من أجمل نساء قریش، وكان عبد الرحمن من أحسن الناس وجهاً، وأبرهم بوالديه فلما دخل بها غلبت على عقله وأحبها حباً شديداً، فقتل ذلك على أبيه فمر به أبو بكر يوماً وهو في غرفة له فقال يا بني: إني أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك، وغلبت على عقلك فطلقها، قال: لست أقدر على ذلك. فقال: أقسمت عليك إلا ما طلقته! فلم يقدر على مخالفة أبيه فطلقها فجزع عليها جزعاً شديداً وامتنع عن الطعام والشراب، فقيل لأبي بكر: أهلك عبد الرحمن؟ فمرج به يوماً وعبد الرحمن لا يراه وهو مضطجع في الشمس ويقول هذه الآيات:

فوالله لا أنساك ما ذرَّ شارقُ	وما نأخ قمرئ الحمائم المطوقُ
فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها	ولا مثلها في غير شيء يطلقُ
لها خلق عَفَّ ودينٌ ومحتدٌ	وخلق سوي في الحياء ومنطقُ

فسمعه أبوه فرق له وقال له: راجعها، وأقامت عنده حتى قتل عنها يوم الطائف مع رسول الله ﷺ، وأصابه سهم فقتله فجزعت عليه جزعاً شديداً وقالت ترثيه:

فآليت لا تنفك نفسي حزينه	عليك ولا ينفك جلدي أغبرا
فتى طول عمري ما أرى مثله فتى	أكر وأحمى في الهياج وأصبرا
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها	إلى القرن ^(١) حتى يترك الرمح أحمر ^(٢)

ثم تزوجها بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته ودعا الناس إلى وليمته فأتوه، فلما فرغ من الطعام وخرج الناس قال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين أئذن لي في كلام عاتكة حتى أهنئها وأدعو لها بالبركة، فذكر عمر ذلك لعاتكة فقالت: إن أبا الحسن فيه مزاح فائذن له يا أمير المؤمنين. فأذن له فرفع جانب الخدر فنظر إليها فإذا ما بدا من جسدها مضمخ بالخلوق فقال لها: يا عاتكة ألسن القائلة:

فآليت لا تنفك نفسي حزينه	عليك ولا ينفك جلدي أغبرا
--------------------------	--------------------------

(١) القرن: الدن.

(٢) الرمح أحمر: يضرجه بالدم.

وقيل: إنَّ عمر لما قتل عنها جزعت عليه جزعاً شديداً، وتزوَّجت بعده الزبير بن العوام وكان رجلاً غيوراً. وكانت تخرج إلى المسجد كعادتها مع أزواجها فشقَّ ذلك عليه، وكان يكره أن ينهاتها عن الخروج إلى الصلاة، لحديث رسول الله ﷺ: «ولا تمنعوا إماء الله مساجد الله» فعرض لها ليلة في ظهر المسجد وهي لا تعرفه فضرب يده عجيزتها ثم انصرف. فقعدت بعد ذلك عن الخروج إلى المسجد. وكان يقول لها: ألا تخرجين يا عاتكة؟ فتقول: كنا نخرج إذا الناس ناس، وما بهم من باس وأما الآن فلا. ثم قتل عنها الزبير، قتله عمرو بن جرموز بوادي السباع وهو نائم. ثم تزوَّجها بعده محمد بن أبي بكر فقتل عنها بمصر. فقالت: لا أتزوَّج بعده أبداً، إني لأحسبني أني لو تزوَّجت جميع أهل الأرض لقتلوا عن آخرهم.

وحكي عن الحارث بن عوف بن أبي حارثة أنه قال لخارجة بن سنان: أترى أني أخطب إلى أحد فيردني؟ قال: نعم. قال: ومن هو؟ قال: أوس بن حارثة بن لام الطائي. قال: اركب بنا إليه، فركبنا إليه حتى أتينا أوس بن حارثة في بلاده فوجدناه في فناء منزله، فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحباً بك يا حارث، ثم قال: ما جاء بك؟ قال: جئت خاطباً. قال: لست هناك فانصرف ولم يكلمه، فدخل أوس على امرأته مغضباً. فقالت له: من الرجل الذي سلم عليك فلم تطل معه الوقوف ولم تكلمه؟ فقال ذلك سيد العرب الحارث بن عوف. فقالت: فما لك لا تستنزله. قال: إنه استهجنني^(١) قالت: وكيف؟ قال لأنه جاءني خاطباً. قالت: أأنت تزعم أنه سيد العرب؟ قال: نعم، قالت: إذا لم تزوَّج سيد العرب في زمانه فمن تزوَّج؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدرك ما كان منك، قال: فماذا؟ قالت: بأن تلحقه فترده. قال: وكيف وقد فرط مني إليه ما فرط؟ قالت: تقول له إنك لقيتني وأنا مغضب لأمر فلك المعذرة فيما فرط مني فأرجع ولك عندي كل ما طلبت. قال: فركب في أثرهما.

قال خارجة بن سنان: فوالله إنا لنسير إذ حانت مني التفاتة فرأيت. فقلت للحارث وهو ما يكلمني هذا أوس في أثرنا فقال: ما أصنع به؟ فلما رأنا لا نقف قال: يا حارث أربع علي فوقنا له وكلمه بذلك الكلام فوجع مسروراً. قال خارجة بن سنان فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته ادعي لي فلانة أكبر بناته فأتته. فقال لها: أي بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب جاءني خاطباً وقد أردت أن أزوجه منه فما تقولين؟ قالت: لا تفعل. قال: ولم؟ قالت لأن في خلقي رداءة وفي لساني حدة، ولست بابنه عمه فإراعي رحمي، ولا هو بجار لك في البلد فيستحي منك، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليّ بذلك مسبة. قال لها: قومي بارك الله فيك. ثم دعا بنته الأخرى فقال لها مثل قوله لأختها. فأجابته بمثل جوابها. فقال لها: قومي بارك الله فيك، ثم دعا بالثالثة وكانت أصغرهنّ سنّاً. فقال لها مثل ما قال لأختها فقالت له أنت وذلك. فقال لها إني عرضت ذلك على أختيك فأبته ولم يذكر لها مقالتهما. فقالت له: والله إني الجميلة وجهاً، الرفيعة خلقاً، الحسنة رأياً، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه، فقال لها: بارك الله فيك. ثم خرج إليه، فقال زوجته يا حارث ابتي هنيئة. قال: قد قبلت نكاحها. وأمر أمها أن تهينها له وتصلح شأنها ثم أمر بيوت ففرض له وأنزله إياه، ثم بعثها إليه فلما دخلت عليه لبث هنيئة ثم خرج إليّ فقلت له: أفرغت من شأنك قال: لا والله. قلت: وكيف ذلك؟ قال: لما مددت يدي إليها قالت: مه، أعند أبي وإخوتي هذا؟ والله لا يكون. ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا وسرنا ما شاء الله. ثم قال لي تقدّم فتقدّمت فعدل عن الطريق فما

(١) استهجنني: استصغرنني.

لبث أن لحقني فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال لا والله. قلت ولم؟ قال: قالت تفعل بي كما يفعل بالأمة السبية الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر والغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يعمل مثلك لمثلي. فقلت: والله إني لأرى همة وعقلاً، فقال صدقت. قال وأرجو الله أن تكون المرأة النجيبة فوردنا إلى بلادنا فأحضر الإبل والغنم ونحر وأولم ثم دخل عليها وخرج إليّ، فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله. قلت ولم ذلك؟ قال: دخلت عليها أريدها فقلت لها قد أحضرت من المال ما تريدين. قالت والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس فيك. قلت: ولم ذاك؟ قالت: أتستفرغ لنكاح النساء، والعرب يقتل بعضها بعضاً. وكان ذلك في أيام حرب قيس وذبيان. قلت: فماذا تقولين؟ قالت: أخرج إلى القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد. فقلت: والله إني لأرى عقلاً ورأياً سديداً. قال: فأخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى، ثم تؤخذ الدية فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير فأنصرفنا بأجمل ذكر، ثم دخل عليها فقالت له: أما الآن فنعم. فأقامت عنده في الدّ عيش وأطيه وولدت له بنين وبنات. وكان من أمرهما ما كان والله أعلم بالصواب.

وحكى الفضل أبو محمد الطيبي قال: حدثنا بعض أصحابنا أنّ رجلاً من بني سعد مرت به جارية لامية بن خالد بن عبد الله بن أسد ذات ظرف وجمال وكان شجاعاً فارساً، فلما رآها قال: طوبى لمن كان له امرأة مثلك. ثم اتبعها رسولاً يسألها، ألها زوج ويذكره لها، وكان جميلاً فقالت للرسول: وما حرفته. فأبلغه الرسول ذلك فقال ارجع إليها وقل لها:

وسائله ما حرفتي قلت حرفتي	مقارعة الأبطال في كل شارقي ^(١)
إذا عرضت خيل لخير رأيتني	أمام رعيّل الخيل أحمي حقائقني ^(٢)
أصبر نفسي حين لم أر صابراً	على ألم البيض الرقاق البوارقي ^(٣)

فلحقها الرسول فأنشدها ما قال. فقالت له: ارجع إليه وقل له: أنت أسد، فاطلب لك لبوة فلست من نساك وأنشدته تقول:

ألا إنما أبغي جواداً بماله	كريماً محياه كثير الصدايق
فتى همة مذ كان خود خريدة	يعانقها في الليل فوق النمارق

وحدث يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن الحكم عن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه قال: تزوج رجل امرأة جديدة على امرأة قديمة، فكانت الجارية الجديدة تمر على بيت القديمة فتقول:

وما يستوي الرجلان: رجلٌ صحيحة	وأخرى رمى فيها الزمانُ فشلت
-------------------------------	-----------------------------

ثم تعود وتقول:

(١) في كل مكان والشارق: الشمس.

(٢) حقائقني: راياتي.

(٣) البوارق: السيوف.

وما يستوي الثوبان: ثوبٌ به البلى وثوبٌ بأيدي البائعين جديداً
فمرّت الجارية القديمة على باب الجديدة يوماً وقالت: (١)
نَقْلُ فَوَادَكْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْهَوَى
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلُفُهُ الْفَتَى
وقال عمرو بن العلاء وكان أعلم الناس بالنساء: (٢)

فإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَلِئَنِّي
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ
بصيرةٌ بأدواء النساء طيبٌ
فليسَ لَهُ فِي وُدِّهِنَّ نَصِيبٌ

وسئل المغيرة بن شعبه عن صفة النساء فقال: بنات العم أحسن مواساة، والغرائب أنجب، وما ضرب رؤوس
الأقران مثل ابن السوداء. وقال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية. ومن أراد أن
يتخذها للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية. قال الشاعر:

لَا تَشْتَمَنَّ امْرَأً مِمَّنْ يَكُونُ لَهُ
فَلِئَمَّا أَمَهَاتُ الْقَوْمِ أَوْعِيَةٌ
أَمْ مِنَ الرُّومِ أَوْ سَوْدَاءَ عَجَمَاءَ
مُسْتَوْدَعَاتٌ وَلِلْأَسَابِ آبَاءَ

وقال الأصمعي: أتاني رجل من قريش يستشيرني في امرأة يتزوجها فقلت: يا ابن أخي أقصيرة النسب أم
طويلته؟ فلم يفهم عني، فقلت: يا ابن أخي أما القصيرة النسب فالتّي إذا ذكرت أباهَا اكتفت به، والطويلة النسب فهي
التي لا تعرف حتى تطيل في نسبها. فإياك أن تقع مع قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم فتضيع نسبك فيهم.
وخرج رجل من أهل الكوفة في غزوة فكسب جارية وفرساً وكان مملكاً على ابنة عمه فكتب إليها يعيها ويقول:

أَلَا بَلَّغُوا أُمَّ الْبَيْنِ بَأَنَّنَا
يَعِيدُ مَنَاطُ الْمُنْكِينَ إِذَا جَرَى
غَنِينَا وَأَغْتَنَّا الْغَطَارِفَةَ النَّجْدُ
لِحَاجَةِ نَفْسِي حِينَ يَنْصَرِفُ الْجَنْدُ
فَإِذَا لَأَيَّامِ الْعَدُوِّ وَهَذِهِ

فما ورد عليها كتابه وقرأته قالت: يا غلام هات الدواة. وكتبت جوابه تقول:

أَلَا فَاقْرِهِ مَنِي السَّلَامِ وَقُلْ لَهُ
إِذَا شَتَّتَ أَغْنَانِي غَلَامَ مَرْجُلٍ
غَنِينَا وَأَغْتَنَّا غَطَارِفَةَ الْمَرْدِ
وَنَازَعْتُهُ فِي مَاءِ مَعْتَصِرِ الْوَرْدِ
إِلَى عَكْنٍ (٣) مِلْسَاءَ أَوْ كَفَلٍ نَهْدٍ (٤)
شُهُوداً فَتَقْضُوهَا عَلَى النَّأْيِ وَالْبَعْدِ
مُنَانَا وَلَا نَدْعُو لَكَ اللَّهَ بِالرَّدِ
وَزَادَكَ رَبُّ النَّاسِ بُعْداً عَلَى بُعْدِ

(١) البيتان لأبي تمام.

(٢) وهذه الأبيات معروفة لعليمة الفحل وهو شاعر جاهلي.

(٣) عكن: ثنايا من البدانة.

(٤) نهد: عجز سمين.

فلما ورد عليه كتابها لم يزد على أن ركب الفرس وأردف الجارية خلفه ولحق بابنة عمه. فكان أول شيء بدأها به بعد السلام أن قال لها: بالله عليك هل كنت فاعلة ذلك؟ فقالت له: الله في قلبي أعظم وأجل، وأنت في عيني أذل وأحق من أن أعصي الله فيك، فكيف دقت طعم الغيرة، فوهب لها الجارية وانصرف إلى الغزاة، والله تعالى أعلم بالصواب.

الفصل الثاني: في صفات النساء المحموده

كتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب أن أخطب لعبد الملك بن مروان امرأة جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة في قومها، ذليلة في نفسها، مؤاتية لبعليها. فكتب إليه: قد أصبتها لولا عظم ثدييها، فكتب إليه: لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها فتدفع الضجيع وتروي الرضيع، وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان. صف لي أحسن النساء. قال: خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين، رداء الكعبيين، ناعمة الساقين، ضخماء الركبتين، لقاء الفخذين، ضخمة الذارعين رخصة الكفين، ناهدة الثديين، حمراء الخدين، كحلاء العينين، زجاء الحاجبين، لمياء الشفتين، بلجاء الجبين، شماء العينين، شنباء الثغور، محلولة الشعر، غيداء العنق، مكسرة البطن. فقال: ويحك وأين توجد هذه؟ قال تجدها في خالص العرب، وفي خالص فارس. وقال حكيم: عليكم من تربت في النعيم ثم أصابتها فاقة فآثر فيها الغنى وأدبها الفقر. وقال رجل لخطب: ابغ لي امرأة لا تؤنس جاراً، ولا توطن داراً، يعني لا تدخل على الجيران، ولا تدخل الجيران عليها. وفي مثل هذه قال الشاعر:

هيفاء فيها إذا استقبلتها صلف عطاء غامضة الكعيبين معطار^(١)
خود من الخفرات البيض لم يرها بساحة الدار لا بعل ولا جار

وقال الأعشى:

لم تمش ميلاً ولم تركب على جمل ولم تر الشمس إلا دونها الكلل^(٢)

وكانت امرأة عمران بن حطان من أجمل الناس وجهاً، وكان هو من أقبح الناس وجهاً فقال لها يوماً: أنا وإياك في الجنة إن شاء الله تعالى، فقالت له: وكيف ذلك؟ فقال: لأنني أعطيتُ مثلك فشكرتُ، وأعطيتُ مثلي فصبرتُ، والصابر والشاكر في الجنة. وقال بعضهم: رأيت في طريق مكة أعرابية ما رأيت أحسن منها وجهاً، فقعدت أنظر إليها وأتعجب من جمالها، فجاء شيخ قصير فأخذ بردائها وسار بها ومضى، فلقيتها مرة أخرى فقلت لها: من هذا الشيخ؟ قالت زوجي، قلت: كيف يرضى مثلك بمثله، فأنشدت:

أيا عجباً للخود يجري وشاؤها تُزف إلى شيخ بأقبح تمثال
دعائي إليه أنه ذو قرابة يعز علينا من بني العم والخال

وسمع بعضهم قائلًا يقول شعراً:

(١) معطار: غلبة يفوح منها العطر.

(٢) الكلل: السناثر.

ومن لا يُرِد مدحي فإنَّ مدائحِي توافقُ عند الأكرمين تواسمي^(١)
توافق عند المشتري الحمد بالندى نفاق بنات الحرث بن هشام

فقال: يا ابن أخي ما بلغ من نفاق بنات الحارث بن هشام. قال: كنَّ من أجمل الناس وجوهاً، وكان أبوهنَّ إذا زَوَّجهنَّ يسوقهنَّ ومهورهنَّ إلى بعولتهنَّ، فقال: يا ابن أخي لو فعل هذا إبليس بيناته لتنافست فيهنَّ الملائكة المقربون. وقال عبد الملك لابن أبي الرقاع: كيف علمك بالنساء؟ قال: أنا والله أعلم الناس بهنَّ وجعل يقول:
قضائِيَّةُ الكعيبِ كندِيَّةُ الحشا خزائِيَّةُ الأطراف طائِيَّةُ الفم
لها حِكْمُ لقمان، وصورةُ يوسف ومنطق داود وعقَّةُ مريم

وقالوا: الوجه الحسن أحمر وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث في الكن، والتضمخ بالطيب. وقالوا: إن الوجه الرقيق البشرة الصافي الأديم إذا خجل يحمر، وإذا فرق يصفر، ومنه قولهم: ديباج الوجه يريدون تلونه من رفته. قال علي بن زيد في وصفه:

حمرة خلط صفرة في بياض مثل ما حاك حائك دياجا
وقال علي بن عبد ربه:

بيضاء يحمرُّ خدَّها إذا خجلت كما جرى ذهبٌ في صفحتي ورق
وقالوا: إن الجارية الحساء تلوّن بتلوّن الشمس، فهي بالضحى بيضاء، وبالعشي صفراء فقال ذو الرمة:
بيضاء صفراء قد تنازعها لوانان من فضّة ومن ذهب

قالوا: ليس المرأة الجميلة التي تأخذها ببصرك جملة على بعد، فإذا دنت منك لم تكن كذلك، بل الجميلة التي كلما كررت بصرك فيها زادتك حسنا. وقالوا: إن أردت أن ينجب ولدك فأغضبها ثم قع عليها. قال الشاعر:
ممن حملن به وهُنَّ عواقدُ حبك النطاق معاش غير مهبل
حملت به في ليلة مزورة كرهاً وعقد نطاقها لم يحلل

الفصل الثالث: في صفة المرأة السوء نعوذ بالله تعالى منها

في حكمة داود عليه السلام: إن المرأة السوء مثل شرك الصياد لا ينجو منها إلا من رضي الله تعالى عنه، وقيل: المرأة السوء غلّ يلقيه الله تعالى في عتق مَنْ يشاء من عباده. وقيل لأعرابي كان ذا تجربة للنساء: صف لنا شرّ النساء، فقال: شرهنَّ النحيقة الجسم، القليلة اللحم، المحياض الممراض، المصفرة الميشومة، العسرة الميشومة السلطا البطرة، النفرة، السريعة الوثبة، كأن لسانها حربة، تضحك من غير عجب، وتبكي من غير سبب، وتدعو على زوجها بالحرب، أنف في السماء، وأست في الماء، عرقوبها حديد، متفخة الوريد، كلامها وعيد، وصوتها شديد، تدفر الحسنات وتفشّي السيئات، تعين الزمان على بعْلِها، ولا تعين بعْلِها على الزمان، ليس في قلبها عليه رافة، ولا عليه منه مخافة، إن دخل خرجت، وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت، وإن بكى ضحكت، كثيرة الدعاء، قليلا

(١) ربما هي التوم: اللآلئ.

الإرعاء، تأكل لثماً، وتوسع ذمًا، ضيقة الباع، مهتوكة القناع، صبيها مهزول، وبيتها مزبول، إذا حدثت تشير بالأصابع وتبكي في المجامع، بادية من حجابها، نباحة عند بابها، تبكي وهي ظالمة، وتشهد وهي غائبة، قد دلى لسانها بالزور، وسال دمعها بالفجور، ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور. يقال: إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها فإن علامة ذلك أن تكون عند قربها منه مرتدة الطرف عنه كأنها تنظر إلى إنسان غيره من ورائه، وإن كانت محبة له لا تقلع عن النظر إليه. قال بعضهم:

لقد كنتُ محتاجاً إلى موت زوجتي ولكن قرينَ السوء باقٍ معمُرُ
فيا ليتها صارت إلى القبر عاجلاً وعذبها فيه نكيرٌ ومنكرُ

وقال زيد بن عمير:

أعاتبها حتى إذا قلت أقلعت^(١) أبسى الله إلا خزيها فتموُدُ
فإن طمئت قادت وإن طهرت زنتُ فهاتيك تزني دائماً وتقوُدُ

وقال داود عليه الصلاة والسلام: المرأة السوء على بعلمها كالحمل الثقيل على الشيخ الكبير، والمرأة الصالحة كالتاج المرصع بالذهب كلما رآها قرّت عينه برؤيتها، والله أعلم.

الفصل الرابع: في مكر النساء وغدرهن وذمهن ومخالفتهن

في حكمة داود عليه الصلاة والسلام: وجدت في الرجال واحداً في ألف، ولم أجد واحدة في جميع النساء. وقيل إن عيسى عليه الصلاة والسلام لقي إبليس وهو يسوق أربعة أحمره عليها أحمال فقال: أحمل تجارة وأطلب مشترين، فقال: ما أحدها؟ قال الجور. قال: من يشتريه؟ قال السلاطين. قال: فما الثاني؟ قال الحسد، قال: فمن يشتريه؟ قال العلماء. قال: فما الثالث؟ قال الخيانة. قال: فمن يشتريها؟ قال التجار. قال: فما الرابع؟ قال: الكيد. قال: فمن يشتريه؟ قال النساء. وقال حكيم: النساء شرّ كلهنّ، وشرّ ما فيهنّ قلة الاستغناء عنهنّ. وقالت الحكماء: لا تتق بامرأة ولا تغترّ بمال وإن كثر. وقيل النساء حباثل الشيطان. قال الشاعر:

تمنّغ بها ما ساعفتك^(٢) ولا تُكنْ جزوعاً إذا بانّت فسوف تيينُ
وخنّها وإن كانت تفي لك إنها على قدم الأيام سوف تخونُ
وإن هي أعطتك اللبان فإنها لغيرك من طلابها ستلينُ
وإن خلّفت أن ليس تنقض عهداً فليس لمخضوب البنان يمين^(٣)
وإن سكّبت يومَ الفراق دموعها فليس لعنير الله ذاك يمينُ

وقال ابن بشار:

رأيت مواعيد النساء كأنها سرابٌ لمرتاد المناهل حافلُ

(١) أقلعت: أفلت.

(٢) ساعفتك: آتتك.

(٣) البنان يمين: ليس للنساء يمين!

ومتتظر الموعود منهن كالذي يؤمل يوماً أن تليين الجنادلُ

وقال بعض الحكماء: لم تنه المرأة عن شيء قط إلا فعلته. وقال الغنوي:

إنَّ النساءَ متى ينهينَ عن خلقٍ فإنه واقعٌ لا بدَّ مفعولُ

وقال النخعي: من اقتراب الساعة طاعة النساء. ويقال: من أطاع عرسه فقد اضاع نفسه. وقال علي رضي الله تعالى عنه: إياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى آفن، وعزمهن إلى وهن، أكف أبصارهن بالحجاب فإن شدة الحجاب خير لهن من الارتياح، وليس خروجهن بأضر من دخول من لا يوثق به عليهن، فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل. قال السمعاني:

لا تأمننَّ على النساء ولو أخاً
ما في الرجالِ على النساءِ أمينٌ
إنَّ الأيمنَ وإن تحفظ جهده
لا بدَّ أن ينظرة سيخونُ

وقال غيره:

لا تركننَّ إلى النساءِ
ولا تثق بهودهنَّ
فرضاؤهنَّ جميعهن
معلقٌ بفروجهنَّ

وقال علي رضي الله تعالى عنه: لا تطلعوا النساء على حال ولا تأمنوهن على مال، ولا تذروهن إلا لتدبير العيال، إن تركنَّ وما يُردنَّ أوردنَّ الممالك وأفسدنَّ الممالك، ينسين الخير، ويحفظن الشر، يتهاقن في البهتان، ويتماذبن في الطغيان. وقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: ذلَّ من أسند أمره إلى المرأة. وقيل إن صياداً أتى أبرويز بسمكة فأعجبه حسننها وسمنها فأمر له بأربعة آلاف درهم، فخطأته شيرين زوجته فقال لها: ماذا أفعل؟ فقالت له: إذا جاءك فقل له أذكراً كانت أم أنثى؟ فإن قال لك ذلك فاطلب منه الأنثى، وإن قال لك أنثى، فاطلب منه الذكر، فلما أتاه سأله فقال: كانت أنثى. فقال: اتني بذكرها. فقال عمر الله الملك كانت بكرة لم تتزوج، فقال: زه، وأمر له بثمانية آلاف درهم. وقال اكتبوا في الحكمة: الغدر ومطوعة النساء يؤديان إلى الغرم الثقيل. وقال حكيم: اعص النساء وهواك وافعل ما شئت. وقال عمر رضي الله تعالى عنه: أكثروا لهنَّ من قول لا، فإن نعم تغريهنَّ على المسألة. وقال: استعينوا بالله من شرار النساء، وكونوا من خيارهنَّ على حذر.

ومما قيل في الباءة: ذكر الجماع عن الإمام مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال: هو نور وجهك، ومع ساقك، فأقلل منه أو أكثر. وقال معاوية رضي الله تعالى عنه: ما رأيت نهما في النساء إلا عرفت ذلك في وجهه. وخلا تمام بجارية له فعجز عنها فقال: ما أوسع حرك. فأنشأت تقول:

أنتَ الفداء لمن قد كان يملؤه
ويشتكي الضيق منه حين يلقاه

وقال آخر:

شفاء الحبِّ تقييلٌ ولمسٌ
ورَهْزٌ تذرْفُ العينان منه
وسخبٌ بالبطون على البطونِ
وأخذٌ بالمناكِب والقرونِ

وقالت امرأة من أهل الكوفة: دخلت على عائشة بنت طلحة فسألت عنها فقيل هي مع زوجها في القيطون

فسمعت شهيقاً وشخيراً لم أسمع مثله. ثم خرجت إليّ وجبينها يتصبب عرقاً، فقلت لها: ما ظننت حرّة تفعل هذا بنفسها! فقالت: إن الخيل تشرب بالصفير. وعابت امرأة زوجها قلة إتيانها فأجابها يقول:

أنا شيخٌ ولي امرأةٌ عجوزُ تراودني على ما لا يجوزُ
وقالت رَقَّ (...) (١) مذكبرنا فقلت: بلى قد اتسع القفيز (٢)

وكان لرجل امرأة تخاصمه، وكلما خاصمته قام إليها فواقعها، فقالت: ويحك كلما تخاصمني تأتيني بشفيع لا أقدر على ردّه. وأتى رجل إلى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وقال: إن لي امرأة كلما غشيتها تقول قتلتي، فقال: اقلها بهذه القتلة وعليّ إثمها. وقالوا: من قلّ جماعه فهو أصحّ بدنًا وأنقى جلدًا وأطول عمراً، ويعتبر ذلك بذكور الحيوان وذلك أنه ليس في الحيوان أطول أعماراً من البغال، ولا أقصر أعماراً من العصافير وهي أكثرها سفاذاً، والله تعالى أعلم بالصواب.

الفصل الخامس: في الطلاق وما جاء فيه

عن عبد الرحمن بن محمد ابن أخي الأصمعي قال: قال عمي للرشد في بعض حديثه: يا أمير المؤمنين بلغني أن رجلاً من العرب طلق في يوم واحد خمس نسوة، قال: وكيف ذلك؟ وإنما لا يجوز للرجل غير أربعة. قال: يا أمير المؤمنين كان متزوجاً بأربعة فدخل عليهنّ يوماً فوجدهنّ متنازعات وكان شريراً، فقال: إلى متى هذا النزاع ما أظن هذا إلا من قبلك يا فلانة اذهبي فأنت طالق. فقالت له صاحبتها: عجلت عليها بالطلاق، ولو أدبته بغير ذلك لكان أصلح، فقال لها: وأنت أيضاً طالق. فقالت له الثالثة: قبحك الله فوالله لقد كانتا إليك محستتين. فقال لها: وأنت أيضاً أيتها المعددة أياديها (٣) طالق. فقالت الرابعة وكانت هلالية: ضاق صدرك إلا أن تؤدّب نساءك بالطلاق فقال لها: وأنت طالق أيضاً. فسمعت جارة له فأشرفت عليه وقالت له: والله ما شهدت العرب عليك ولا على قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم، ووجدوه فيكم أبيت إلا طلاق نساءك في ساعة واحدة. فقال لها وأنت أيها المتكلمة فيما لا يعينك طالق، إن أجازني بملك. فأجابه زوجها: قد أجزت لك ذلك فعجب الرشد من ذلك.

وطلق رجل امرأته فلما أرادت الارتحال قال لها: اسمعي وليسمع من حضر إني والله اعتمدتك برغبة، وعاشرتك بمحبة، ولم أجد منك زلة، ولم يدخلني عنك ملة، ولكن القضاء كان غالباً. فقالت المرأة: جزيت من صاحب ومصحوب خيراً، فما استقلت خيراً، ولا شكوت ضيراً، ولا تمنيت غيرك، ولا أجد لك في الرجال شبيهاً، وليس لقضاء الله مدفع، ولا من حكمه علينا ممنع. وقال رجل لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما تقول في رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء؟ فقال يكفيه من ذلك عدد نجوم الجوزاء.

ذكر من طلق امرأته فتبعته نفسه، قال الهيثم بن عدي: كانت تحت ابن الغربان بن الأسود بنت عمّ فطلقها فتبعته نفسه، فكتب إليها يعرض لها بالرجوع فكتبت إليه تقول:

(١) ذكر الرجل.

(٢) القفيز: فرج الأنثى.

(٣) أياديها: نعمها.

إن كنتَ ذا حاجةٍ فاطْلُبْ لها بدلاً
إن الغزال الذي ضيعت مشغولُ
فكتب إليها يقول:

إن كانَ ذا شغلٍ فالله يكلِّوه
وقد قضَيْنا من استظرافه وطراً
فقد لهوْنَا به والحبلُ موصولُ
وفي الليالي وفي أيامها طولُ

وطلق الوليد بن يزيد زوجته سعدى فلما تزوجت اشتد ذلك عليه وندم على ما كان منه، فدخل عليه أشعب فقال له: هل لك أن تبلغ سعدى عني رسالة ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: أقبضنيها. فأمر له بها، فلما قبضها قال له: هات رسالتك قال: اتتها فأشدها:

أسعدى هل إليك لنا سبيلُ
بلى ولعلَّ دهرًا أن يؤتاني
ولا حتى القيامة من تلاقٍ
بموتٍ من خليلك أو فراقٍ

قال: فاتها أشعب فاستأذن عليها فأذنت له فدخل. فقالت له: ما بدا لك في زيارتنا يا أشعب؟ قال: يا سيدتي أرسلني إليك الوليد برسالة، ثم أنشدها الشعر، فقالت لجواربها: عليكن بهذا الخبيث فقال: يا سيدتي إنه دفع لي عشرة آلاف درهم فهي لك وأعتقني لوجه الله، فقالت: والله لا أعتقتك أو تبلغ إليه ما أقول لك. قال: يا سيدتي فاجعلي لي جعلاً. قالت: لك بساطي هذا. قال: قومي عنه. فقامت فأخذه وألقاه على ظهره وقال: هات رسالتك فقالت:

أتبكي على سعدى وأنت تركتها
فقد ذهبَ سعدى فما أنت صانعُ

فلما بلغه الرسالة ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأخذته كظمة، فقال لأشعب: اختر مني إحدى ثلاث، إما أن أقتلك، وإما أن أطرحك من هذا القصر، وإما أن ألقيك إلى هذه السباع فتفترسك. فتحير أشعب وأطرق ملياً، ثم قال: يا سيدي ما كنت لتعذب عينا نظرت إلى سعدى، فتبسم وخلقى سبيله... ومن طلق فتبعته نفسه الفرزدق الشاعر طلق النوار ثم ندم على طلاقها وقال:

ندمتُ ندامة الكسعي لما
فأصبحتُ الغداة ألوم نفسي
وكانت جتتي فخرجتُ منها
ولو أنني ملكتُ بها يميني
غدت مني مطلقاً نوارُ
بأمرٍ ليس لي فيه اختيارُ
كأدم حين أخرجته الضراءُ
لكان علي للقدر الخيارُ

ومن طلق امرأته فتبعته نفسه فندم قيس بن ذريح وكان أبوه أمره بطلاقها فطلقها وندم على ذلك فأشده يقول:

فني صبري وعادوني رداعي
تكفني الوشاة فأزعجونني
فأصبحتُ الغداة ألوم نفسي
كمغبونٍ يعضُّ على يديهِ
وكان فراقُ لبي كالأخداع
فيا للناسِ للواشي المطاع
على أمرٍ وليس بمستطاع
تئين غبنه عند الياع

وحدث العتيبي قال: جاء رجل بامرأة كأنها برج من فضة إلى عبد الرحمن بن الحكم وهو على الكوفة فقال إن امرأتي هذه شجنتني. فسألها عبد الرحمن فقالت: نعم يا مولاي غير متمعدة لذلك، كنت أعالج طيباً فوقع الفهر من

يدي على رأسه وليس عندي علم، ولا يقوى بدني على القصاص. فقال للرجل: علام تمسكها وقد فعلت بك ما أرى. فقال: يا مولاي إن صداقها علي أربعة آلاف درهم ولا تطيب نفسي بفراقها. قال: فإن أعطيتك الأربعة آلاف درهم تفارقها؟ قال: نعم. قال: هي لك. قال: فهي إذن طالق. فقال لها عبد الرحمن: احبسي علينا نفسك وأنشأ يقول:

يا شيخُ يا شيخُ من دلاك بالغزل قد كنتَ يا شيخُ عن هذا بمعتزلٍ
رضت الصعابَ فلم تحسن رياضتها فاعمد لنفسك نحو القرعِ الذليلِ
والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.